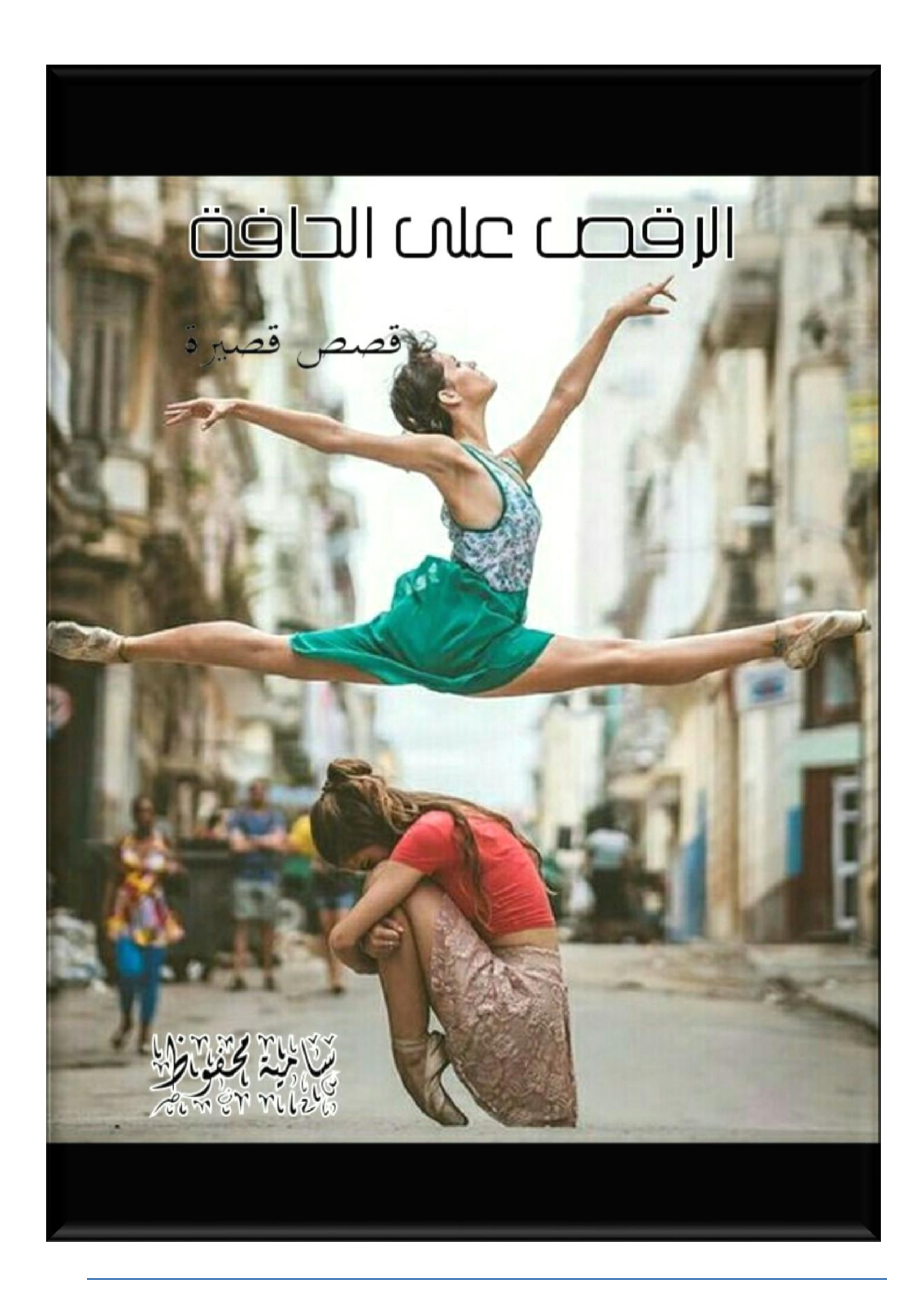

الرقص على الحافة
قصص قصيرة
سامية محفوظ

النافذة

منذ أن أصبت بالعجز إثر حادث وأنا لا أفارق النافذة، كنت في العاشرة حين تعرفت من خلالها على (نور)، طفلة ذات شعر ذهبي، عيناها ضيقتان، وجهها دائمًا مبتسم، دائمًا ما تحكي لي عما تراه، كانت روحي التي تحلق خارج هذا المكان.

لم تحبها أمي يومًا، ترى أنها تفسد خيالي، وأن وجودها سيذكرني بعجزي، لا تعلم أن وجودها هو ما ينسيني ذلك.

أتت يومًا بكرة صغيرة في يدها، نظرت إليّ وهي تشير إلى الكرة وتبتسم، امتقع وجهي، بينما هي ابتعدت، ظننت أنها ستغادر، وجدتها التفتت وألقت إليّ بالكرة، شعرت حين أمسكت بالكرة كمن حقق انتصارًا.

وكأن تلك السعادة لا بد أن تليها مرارة، لم أر نور بعدها، ظللت أنتظرها كل يومٍ لكنها لم تأتِ.

ظللت أراقب تصرفات المارة لعلي أنسى نور، أراقب الوجوه الباسمة، والعابسة، وأفكر حينها لمَ يعبس من يملك الحرية!

رأيت وسط الزحام شابًا وفتاة تتشابك أيديهما، خفق قلبي حينها، شعرت باختلاج شفتيها حين اقترب منهما، مكانهما المفضل بالقرب من النهر، يعطيان ظهرهما للمارة، لا يريدان لأحد أن يشاركهما حبهما سواه، لكنني من ظهرهما كنت أشعر بما يفعلان، وأسمع ما يقولانه، ولا تسألني كيف، لأنني لا أعرف كيف!

حتى رأيتها ذات يوم تقترب وسط الزحام، وجه مميز تغير كثيرًا، يرتدي ملابس فضفاضة، ونقابًا، مجرد رداء أسود يتحرك، لكن تلك العين الضيقة وإن غابت عنها الابتسامة، لن أنساها.

-تغيرتِ كثيرًا يا نور.

-وأنتِ أيضًا.

-ماذا حدث لكِ. ولمَ اختفيتِ؟

-لقد تزوجت... تتلفت حولها.. إنه يمنعني عن كل أصدقائي، لا يتركني أذهب إلى أي مكان بمفردي.

-أنتِ ما زلتِ طفلة، كيف تتزوجين، بل وتتزوجين شخصًا يفعل بكِ كل هذا؟!

-ليس كل شيء بإرادتنا. سأذهب الآن كي لا يُكشف أمري، كوني سعيدة، لا تفقدي طفولتك مثلي، هل أحببتِ يا سناء؟

-أنا لم أرَ أو أتحدث مع أحد.

-سأراكِ مرة أخرى، فكري في الأمر حتى نلتقي.

كلمات نور فتحت أمامي بابًا لم أفكر به من قبل.. كيف أحب يا نور؟ من سيحب عاجزة مثلي؟ أبتسم حين اتذكر الشاب والفتاة.. هل أجلس مكانهما يومًا ما؟ فقدتِ عقلكِ يا نور وستفقدينني إياه.

فتحت النافذة لأجد أمامي الشاب وحده ينظر حزينًا إلى النهر -أو هكذا ظننت، أخذت أنظر إليه حتى جاء موعد انصرافه.. أصبحت على علم بتوقيت كل ما يحدث في الشارع. نظرت إليه، لا. أنا لا أحبه، إنه يحب أخرى، سامحكِ الله يا نور.

منذ ذلك الحين يأتي بمفرده ونتبادل النظرات والبسمات، حتى اقترب مني ذات يوم، شعرت بوجيب قلبي يكاد يعزف لحنًا مزجت فيه كل ألوان السعادة.

حين اقترب أردت أن تقع عيناه على الكرسي الذي أجلس عليه قبل أن تقع على عيناي رغم اشتياقهما إليه، لكنه

تجاوزني، لم يقترب ليتحدث إليّ أو مجرد النظر، يبدو أنه وجدها وأنهما تصالحا الآن، لم أره بعد ذلك. ولم أعلم معنى نظراته إلي، هل خُيل لي ذلك؟!

-لا بد أن أنساه الآن، أن أنسى ما لم يحدث!

-سناء. كفي عن الحديث... (هكذا حدثتني أمي بصوت غاضب).

-أنا أتحدث إلى نور يا أمي... (وجهت حديثي إلى نور عبر النافذة).

-أمي ما زالت غاضبة من صداقتنا.

-يبدو أنني لن أراكِ ثانيةً يا سناء.

-لمَ تقولين ذلك؟

-أشعر بذلك فقط.

-(يعلو صوت أمي من جديد)... سناء لمَ تحدثين نفسك، لقد تعبت من هذا الهراء.

-لقد أخبرتكِ يا أمي، كنت أتحدث إلى نور عبر النافذة.

-لا يوجد أحد يا سناء، لا توجد نافذة في الغرفة.

حينها فقط شعرت بالعجز، دائمًا كانت هناك نافذة تفصلني عن الحياة، والآن أُغلقت وإلى الأبد.

قناع

تجلس وحيدة تنظر إلى ساعتها ثم إلى باب الملهى الذي لا يمل من دخول وخروج الثنائيات، ربما أخطأها الباب حين دلفت وحدها إلى الداخل، بينما تشاهد الثنائيات الراقصة، جاءتها يد ممدودة فقبلت دعوتها للرقص، تخطو واثقة في ردائها الأزرق القصير. شعرها يتجاوز منتصف ظهرها أسود فاحمًا تسقط منه خصلة على وجهها الأبيض المشرب ببعض الحمرة. عيناها زرقاوان، شفتاها مكتنزتان مع لون الحمرة. بعد أن اعتليا المسرح رأته، شابًا في في نهاية عقده الثاني، لا يقل غرورًا عنها، ينظر حوله حتى تقع عيناه عليها، ظلت ترقص مع شريكها، ثم استبدلته بشريك آخر، حتى انتهى الأمر بين ذراعيه وهو يحدجها بنظراته التي تعشقها بقدر ما تخشاها. لا تعلم لمَ تفعل به هذا! لكنها تسعد حين تراه مجنونًا هكذا.. تخشى دائمًا أن يطمئن لها، تخشى أن يملها أو يتركها.

في شقة بسيطة حجرتان وصالة. تخرج فتاة ترتدي بيجاما. شعرها أسود مجعد، ترتدي نظارة طبية تخفي عيناها، وجهها به الكثير من الندوب، تتقدم نحو الباب لتفتحه.

الشاب الذي كان برفقة الفتاة من قبل.

-هل تقطن ندى هنا؟

-لم يقطن أحد هنا بهذا الاسم؟

-يحدث نفسه -ولكنني متأكد أنني رافقتها إلى هذا المنزل!

-هل تستطيع أن تخبرني ماذا تريد ربما أعرف من هي؟

- يبدو أن الأمر التبس علي، سألحق بها في مكاننا. شكرًا لكِ.

تغلق الباب خلفه بوجه ممتقع، ذهبت إلى غرفتها لتنظر إلى نفسها في المرآة.

-لم ينظر إلى وجهي، يأتي ليسأل عن أخرى بينما أنا من تحبه. تلك الندوب هي خطيئتي ربما نظر إلى وجهي... لا لم يحاول.

نظرت إلى المرآة التي تحوي الكثير من أدوات التجميل، (ندى) الآن ستأتي إليك، ولتبقَ فاطمة التي لا يريدها أحد بداخلي، قد يأتي أحد ويشعر بها ولو من خلف قناع، وإن لم يحدث ذلك فلنا ندى التي تلبي حاجتنا للحب والانتقام!

تتركه وتجلس على المنضدة التي تركتها منذ قليل من أجل الرقص، تنظر حولها منتشية بنظرات الإعجاب والرغبة. يأتي الشاب ويجلس إلى جوارها. ينظر إلى عينيها الحائرتين، يحاول أن يبدو رومانسيًا وجادًا أيضًا.

- لقد قررت أن أعرض عليكِ الزواج،هل ترفضين؟!

- يبدو أن اسمها "هل تقبلين"؟

- هذا ما إذا كان الرفض هو المتوقع لكن هنا القبول هو المتوقع لذلك أسألكِ العكس.

- ولمَ ترى القبول متوقعًا؟!

-لأن بيننا قصة حب.. هل تنكرينها؟!

- أنا لا أنكر شيئًا ولا أعترف بشيء.. لم ولن أحب أحدًا.. سأظل هكذا حرة.

- هل ترفضين الزواج بي؟

- أرفض الزواج فقط.

- أشعر وكأنني لم أعرفكِ.

-يبدو ذلك جليًا.. كلنا يكمن بداخلنا أشخاص آخرون، أحيانًا حتى نحن لم نعرفهم.. لا توجد حقائق معي يا علي. ابحث عنها في مكان آخر.

تتخيل نفسها للحظة فاطمة التي أحبت علي وتمنت حبه، لكنه لم يشعر بها، تذكر ندى تلك التي صنعتها بيدها لكي تحقق ما حلمت به فاطمة، وفي النهاية لم تحصل على سعادتها، ظلت حائرة مَن هي وما حلمها. نظرات الإعجاب التي تنتشي لرؤيتها تلك، حب علي وطلبه الزواج.. هذا كله لمن؟ هل تستطيع أن تخبره الحقيقة؟ لقد رآها يومًا ما ولم يتعرف عليها لأنه يحلم بأخرى!

تذكر علي تلك الفتاة البسيطة التي رآها في المنزل الذي ظن أنه منزل ندى، بدا له أن نظراتها قالت أشياء لم يرد فهمها ربما حان وقتها الآن.

تعلم الآن أنها لن تحظى بسعادة كاملة، سترضى بتلك اللحظات المتناثرة إن لم تجد غيرها، الآن أدركت أنها تفضّل نفسها خلف قناع..

يذهب هو بينما تعتلي هي المسرح من جديد لتشارك أحدهم الرقص، نظراتها رافقته حتى اختفى عن عينيها.

رحلة إلى النهاية

تنظر من خلال المرآة إلى الطريق الذي تطويه السيارة، لتتذكر أحلامها التي طواها أبوها بحجة خوفه عليها، تمرق سيارة جانبهما بها شاب وفتاة يتحدثان ويضحكان، يمتعض الأب الذي لا يحيد عينيه الواسعتين حد الرعب عن الطريق ومقود السيارة، فقط ينظر بجانب عينيه، ويطلب منها غلق النافذة والنظر إلى الأمام.

-تريد أن تمنعني من المشاهدة أيضًا!

-لا أعلم كيف أسعدك، أليست تلك الرحلة أكثر شيء تمنيته؟

-لم يعد يسعدني شيء، أنت من أصر على السفر، ربما تريد أن تتخلص من ذنبي.

-ذنبك؟! ما ذنبك هذا، المدرسة، أم أصحابك الذين منعتكِ عنهم!

تضحك ساخرة دون رد.

-إنني أخشى عليكِ من كل شيء، أعلم ذلك، لكنك لا تعلمين ماذا يحدث في زماننا هذا. لم يعد لديّ غيرك.

-الخوف أماتك وأنت حي يا أبي، وتريد أن تُميتني به أيضًا. انظر إليّ.. هل أبدو لك فتاة لم تتجاوز العشرين بعد؟ أصبحت أخشى كل من حولي.

هكذا حدثت نفسها ثم عادت لمتابعة الطريق، اكتسبت السماء لون حمرة الغروب فبدا الطريق ساحرًا ولكنه كئيب بعض الشيء، يلحظ الأب ذلك:

-أرأيتِ؟ لقد تأخرنا، كنت أود أن نسافر في وضح النهار.

-آسفة يا أبي، يمكننا العودة إن شئت.

-لا تتحدثي هكذا، دعينا نقترب من بعض هذه الأيام.

-لن يغير هذا شيئًا يا أبي، لكنني سأحاول!

بدأت تشعر بالملل فأخذت تجيل بصرها بين أبيها والطريق، ترمقه في امتعاض، تتذكر أمها كيف كانت تحبه؟! رجل أشيب الشعر، وجهه مليء بالتجاعيد رغم أنه لم يتجاوز الخمسين بعد، الليل قد أسدل ستاره، والظلام بدا حالكًا سوى من بعض الأضواء التي بالكاد تضيء الطريق.

غالبها النعاس فأخذ أباها ينظر إليها، إلى جسدها الذي يخشى أن يمسه أي شخص، قد تظن أنه مجنون وقد يفكر في شيء، لكنني أقسم لك أن لا، قد يستنفره جسدها الفائر وشعرها الأسود الحالك كظلام الليل الذي يسيران فيه، لكنه أب سوي.

يلمح سيارة تتبعه، يحاول التخلص منها لكن بلا فائدة، يسرع تارة ويبطئ أخرى، لكنها ما تزال في أثره، يلمح شابان داخل السيارة لا تبشر هيئتهما بأي خير، ينظر إلى ابنته التي تبدو مثل الملاك في نومها، انتحب وهو لا يجد فرصة للهروب. يحدثها، أو يحدث نفسه.

-هل أخشى عليكِ من كل شيء، حتى آتي بكِ إلى الهلاك؟

فوجئ بالشابين وقد قطعا عليه الطريق، وحاولا فتح باب سيارته، احتضن ابنته التي استيقظت مذعورة وهي تنظر إلى أبيها، لكن هذين الوحشين الهائجين لن يتوقفا عن المحاولة، تم كسر النافذة، أُخذت الفتاة من ذراعيها وأباها متشبث بها، حتى أمسك سلاحه وهم بضرب أحدهما، لكن الأخر باغته بضربه أفقدته توازنه.

أمسك الشابان الفتاة ثم قاما بتمزيق ملابسها ريثما يمسك الثالث الذي ظهر فجأة أبيها ويبقي عينيه مفتوحتين كي يشاهد ما يحدث لابنته. يحاول التملص أو الموت وكلاهما يبوء بالفشل، حتى فقد الوعي فشل فيه. يرى نظرات ابنته الباكية المستنجدة، أحيانًا يشعر أنها تضحك ساخرة مستهزئة به وبمخاوفه التي حرمتها كل شيء.

انتهوا وتركوها لا يسترها سوى لون الدم، هرع إليها الأب وهو ينزع ملابسه ليسترها بها.

تنظر إليه باسمة وتحدثه بصوت خفيض متهدج:

ـ لن تفيد يا أبي، لن تغير شيئًا، ألم أخبرك من قبل؟ ليلتنا تلك لم تغير شيئًا، لقد أنهته فقط.

أغلقت عينيها وهو ينشج بجوارها ويصرخ ويستغيث لكن بلا فائدة، حتى خارت قواه هو الآخر، ربما من الخوف، أو الحزن أو نظرتها الساخرة، أو لا شيء ربما لم يمت وكانت فقط مجرد إغماءة، يصحو بعدها ليجد ابنته إلى جواره من جديد.

سأظل صديقته

يدخل تباعًا إلى خشبة المسرح شاب وفتاة في أوائل العشرينيات، الشاب يميل إلى السمرة متصل الحاجبين، أطول من الفتاة بعض الشيء، الفتاة بيضاء، شعرها طويل ومجعد، عيناها سوداوان غائرتان، يرتدي كل منهما ملابس رياضية. تنظر الفتاة إلى المسرح الخالي.

.-هل تأخرنا أم أتينا مبكرًا؟

- (ينظر إلى ساعته).. على العكس في ميعادنا تمامًا.

-(تضحك وتنظر إليه).. لا يوجد شيء تام سوى في خيالك أنت.

-(يضحك ثم يجلس على الأرض).. لا يعجبك فيّ شيء!

-كما أنت أيضًا! (تجلس بقربه)

-ماذا سنفعل إذًا؟ هل أُلغيت البروفة ولم يبلغونا؟ أم أُلغي العرض بأكمله؟

-سننتظر ونرى.

-لا أستطيع الانتظار، هيا ننفذ العرض، بل نرتجل عرضًا خاصًا بنا.

-مجنونة أنتِ.

-أذكر أنك كنت تحب ذلك!

-هل سنبدأ مرة أخرى!

-لا. هيا اختر الدور الذي تريد أو أخلق دورك.

-لن أضاهيكِ في الخيال. اختاري أنتِ وأنا سأجاريكِ.

-إذًا سوف تقوم أنت بدور البطل وأنا سأقوم بدور حبيبتك.

-هل تذكرين حين كنا نلعب سويًا ونحن صغار؟ دائمًا كنتِ تختارين لي دور الحبيب!

-وأذكر أيضًا أنك دائمًا ما كنت تفشل فيه.

-ورغم ذلك ما زلتِ تقترحينه!

-ما زلت على أمل..

-ماذا؟

(بعد صمت مشوب ببعض الحزن)... أن يتحسن أداؤك.

(يلمح المسجل فينظر إليها مبتسمًا) ترقصين؟

-هل في مسرحيتنا رقص؟

-تلك مسرحيتنا نحن. هيا.

يقترب من المسجل ويقوم بتشغيل موسيقى هادئة، تبتسم هي حين تسمعها، يأتي إليها ويراقصها.

-أتذكر حين رأيتك ترقص مع فتاة يوم عيد ميلادك؟

-بحركة واحدة منكِ رأيت الفتاة على الأرض، وأنتِ بين ذراعي، أخبرتها: عفوًا.. صديقتي مجنونة!

يضحكان ويأخذان في الدوران حتى تنتهي الموسيقى، يجلس وهي بقربه، تميل برأسها على كتفه وتتحدث بلهجة حزينة.

-لماذا لم تحبني؟

-لا تجوز الأسئلة في الحب، يحدث وكفى.

تنظر إليه عسى أن تجد في عينيه شيئًا آخر يريحها، لكنها تجدهما باهتتين وحائرتين كما هما دومًا.

-كلماتك بلهاء، مثل نظراتك تلك.

-لأنني عاشق، لم يجد معشوقته بعد.

-تنتظر. بينما أتكئ على كتفك الآن!

-أنتِ صديقتي الوحيدة.

-مثلما أنت وجعي الوحيد!

يسمعان لغطًا يأتي من الخارج، يليه دخول مجموعة من الشباب من الجنسين، يتقدمهم شاب يمسك أوراق في يديه، ينظر إليهما.

-هناك من أتى مبكرًا. هيا سنبدأ في الحال.

وقف صديقها أمام فتاة جميلة، ينظر إلى عينيها ليؤدي مشهدًا غراميًا، لكنها رأت في عينيه غرامًا حقيقيًا.. أوقف المخرج المشهد.

-لم يعجبني هذا الأداء. (هنا) أما زلتِ تريدين دور الحبيبة؟ أعتقد أنكِ أحق به.

-بل سأظل في دور الصديقة. غير أنهما رائعان معًا.

ظلال

اصطففن كعادتهن،نفس الملبس، الابتسامة، لا تستطيع تمييز أيٍّ منهن في شيء، يقفن في ثبات خلف الفرقة الموسيقية، الكل يتماهى لينفرد البطل، يأتي المطرب أو المطربة، فهذا هو المتغير الوحيد، هو الوحيد الذي ينال كل شيء، الانفراد، الثناء، التحليق في سمائه الخاصة..

تبدأ الفرقة بالعزف ثم المطربة التي تجلى صوتها مع تصفيق الجمهور، ثم جاء دور الصف المتراص كي يخرج صوته في تناغم، ولكنه لم يحدث، لم يخرج أي صوت من حناجرهن المستهلكة، يحاولن، خاصةً مع التفات الجميع إليهن، ربما تلك المرة الأولى التي يلتفت إليهن أحد، رهبة ذلك زادت من خرسهن، تعالت الموسيقى، حاول الصف الآخر من الرجال الغناء لكن أصواتهم جاءت مضطربة، تداركت المطربة الموقف، كأن شيئًا لم يحدث، انتهى العرض،نظرت إليهن المطربة بازدراء ثم انصرفت، لأنهن بخطأهن هذا سلبوها متعة التميز الأوحد، ذهب الجمهور وهو يذكر ذاك الصف الأخرس!

الفرقة بقيت كما هي، ربما لأنها تخشى أن يحدث لها يومًا ما هذا الخرس، نظر الجميع إلى الصف الذي يحاول جاهدًا تجاهل تلك النظرات المتسائلة، نفس السؤال الذي يجوب أعماقهن أيضًا ولكن ما من مجيب، تفرق الصف كل منهن تحاول أن تكتشف أمرها، أن تجيب عن أسئلتها، أن تعلم إذا ما كان الأمر يخصها هي فقط أم تراها عدوى أصابت الصف!

إحداهن تسللت إلى مقاعد الجمهور نظرت إلى المسرح، جلست على أحد المقاعد، تذكرت حين كانت طفلة ذات شعر أسود قصير ووجه بريء، ترتدي فستانًا قصيرًا وتمسك بيدها (الميكروفون)، تبتسم حينما تشعر بوجود جمهور إلى جوارها ينصت لذلك الصوت ويصفق له، هذا كان الأمس، ما أجمله وما أبعده!

فهي الآن تجاوزت الأربعين، شعرها الأسود أصبح خليطًا رماديًا، حتى صوتها لم يعد له هذا البريق.

فتاة أخرى ما زالت فوق المسرح في مكانها تحاول أن تُخرج صوتها ولكن بلا فائدة،حاولت الابتعاد، حين غادرت المسرح

انطلق صوتها عذبًا ومنتشيًا.. هل المسرح يكبل صوتها أم تُراه الظل من يفعل ذلك!

شابة في بداية العشرينيات، جسدها النحيل والنظارة التي ترتديها التي تخفي لون عينيها وهيئتها، لمحت عازف الكمان الذي يشبه أبيها كثيرًا. كم تباهى بها على هذا المسرح وكم سعدت بنظراته الفخور. تتغير ملامحها حين تذكر إلحاحه الفترة الماضية كي يأتي لسماعها.

ظلت كل منهن تتذكر حالها بالأمس وما وصلت إليه اليوم،اكتشفن جميعًا أن إحباط أحلامهن هو السبب وراء تمرد أصواتهن.

لاحظ العازف نظرات الشابة إليه، أمسك كمانه وبدأ بالعزف،نظر إليها نظرة تشبه نظرة أبيها. وجدت نفسها تمسك (الميكروفون) وتتقدم المسرح وتبدأ بالغناء. تبع عزف ذلك الرجل عازف آخر، تقدم الصف إلى الأمام، كلهم بالتدريج بدؤوا بالعزف والغناء، بشكل تلقائي وربما عبثي لكنه أثار مَن بالمسرح لمشاهدة تلك الحالة الاستثنائية.

رُدت إليهم أرواحهم وأصواتهم وأحلامهم، سمعوا أول تصفيق خالصًا لهم مائة بالمائة، ربما للمرة الأولى يشعر كل شخص منهم بأن التصفيق له وحده.
بعد عدة أيام تم الإعداد لحفلة، مثل تلك التي باءت بالفشل من قبل، لكن في هذه المرة لم يكن الفشل من قِبل الصف، بل من تلك المطربة. بمجرد أن بدأت الغناء شعرت أن كل ما حولها يطغى عليها، الموسيقى، صوت الصف، ربما شعرت أن نشوة الجمهور أيضًا تطغى على صوتها، توقفت عن الغناء، نظرت إلى الخلف، ثم أشارت إليهم بالتوقف، انصاع الجميع لطلبها.

استدارت وبدأت بالغناء بمفردها، لم ترَ التصفيق الذي اعتادته، تركت المسرح، توقفت عند نهايته متخيلة زوبعة يقوم بها الجمهور لتغني من جديد، لكن ذلك لم يحدث.

تقدمت الفتاة ذات النظارة وانطلق صوتها الذي انتظر ذلك طويلاً، تجلى صوتها وهي تتخيل أبيها في كل الرجال، هذا ما أرادته، عادت إلى الصف، أتت أخرى، أيضًا العازفون تقدموا المسرح واحدًا تلو الآخر، الجميع اختبر لحظة الوقوف منفردًا، في لحظة انفراد بنكهة التماهي، نظرت

المطربة إلى ما يحدث، الفرقة، الصف، كلمات ليس لها معنى الآن، فهي حالة، لا يوجد شيء بذاته، الجميع يتبادل الأدوار،أرادت أن تنسحب، لكنها دون أن تدري وقفت في الخلف بجوار إحداهن في الصف!

تذكر دائمًا أنني أحبك

تجلس على أرضية الغرفة تنظر إلى تلك الأشياء التي قامت بوضعها حولها. شفرة، أقراص مهدئة، حبل، مشروب روحي!

لا أعلم كيف يقتنعون أن هناك مشروبًا للروح، مأساتنا في تلك الحياة هي ظمأ الروح، ليت هناك مشروبًا لها، لكان الأمر يسيرًا ولم يلجأ أحد إلى تلك الأشياء..

تنظر حولها، ثم إلى نافذة تطل على غرفتها، لتجد شابًا و فتاة بين ذراعيه يقبلها.

تذكر حين كانت هي من يطوقها بذراعيه.

- أتمنى لو نبقى سويًا للأبد.

-نحن كذلك.

-لسنا كذلك، أنا امرأة بين رجلين، ولم أعد أحتمل ذلك.

(يقترب من شفتيها الدقيقتين اللتين تكادان تتلاشيان في شفتيه)

-دعينا من ذلك الآن. فلنسعد.

-لكنني أريد معرفة مآل أمرنا الآن.

-لن يزيد عما نحن فيه، أنتِ تعشقين تلك الترهات التي تفسد سعادتنا!

-سعادتك أنت.

تجده ابتعد عنها فهي تعلم جيدًا عبثية هذا الحوار الذي تكرره دائمًا على أمل، لكن يبدو أن الأمل لم يأتِ بعد!

-أنت محق، لن أفكر في شيء، لا تغضب، نحن هنا لنسعد أليس صحيحًا؟! لكن ألسنا عاشقين؟ أليس من حق العاشقين أن يتشاركا كل شيء وليس الجسد فقط!

-هذا هراء. الجسد أهم شيء يربط بين العاشقين.

-أظن ذلك، فلتذهب أوجاعنا إلى الجحيم، ولتبقَ متعة الجسد فقط!

تنتهي هذه الكلمة بلقاء حميم ينتهي بغصة لم تمحُها حرارة ومتعة اللقاء.

تبكي وهي ما زالت تنظر إلى النافذة التي ابتعد عنها الشاب والفتاة، لا بد أنهما دخلا ليفعلا ما تخيلته منذ لحظات. تمسك

الزجاجة التي تحوي ما يسمونه المشروب الروحي، لتروي ظمأها!

قبل الآن بلحظات كانت في الفراش، يد زوجها تحاوطها، ورأسه تستند على صدرها، يبدو كطفل في حضن أمه.

تذكر آخر كلمات له قبل أن يحتضنها وينام هكذا.

-لقد آلمتك كثيرًا، لكنني سأعوضك عن كل شيء، لم أكن أدرك أنني أحبك بهذا القدر.

لم ترها مجرد كلمات بل شعرت بها في لمسته وفي عينيه الدامعتين، وفي تشبثه بها في هيئة حضن. كلمات وشعور تمنت كثيرًا أن تختبر وجودهما من قبل لكن هو هكذا دائمًا. متأخر!

تذهب إلى الشرفة تنظر إلى الطريق، لا. هذه طريقة منفرة! تنظر خلفها إلى الحبل. ثم إلى سقف الشرفة.

هل ينتهي أمرك هكذا؟ رأس مدلى ونظرة بائسة.. لا أريد هذا أيضًا.

إذًا إنـها الشفرة. تتساقط بعدها الدماء تاركةً بركة صغيرة تؤكد أن هناك روحًا قُتلت قبل وجود تلك الدماء بكثير، وأنـها مجرد إثبات فقط!

تتذكر طفلها ذا الخمسة أعوام. لا تريده أن يرى هذا المشهد الدموي.

لكن الآن حان وقت الرسالة التي تُكتب عادةً قبل الموت. لماذا يكتب شيئًا من يقرر الرحيل؟ ستفيد من كلماته وهي لم تفد صاحبها. ربما يريد أن يخبرنا سر اللعبة وعلينا أن نقرر نستمر بها أم لا، ربما أيضًا يريد أن يعاقبنا على عدم الشعور به وهو حي. لكنه في نهاية الأمر يكتبها، لا يهمه ما ستفعله بها. لقد ذهب إلى مكان يأمل أن به راحة أبدية أو مشروبًا يروي ظمأ الروح!

هل لديكِ خيار الآن؟ لا أعتقد.

أخذت علبة الأقراص المهدئة وأفرغتها في فمها وهي تنظر إلى النافذة.

في الحمام. نائمة في حوض الاستحمام، تنظر إلى الأعلى. ترى ذلك الاتساع يضيق في عينيها حتى يختفي. تسمع

أصواتًا مختلطة. بكاء، نظرات حب، آهات عشق، ضحكة طفل. رأسها يغوص داخل الماء وهي ما زالت تنظر إلى الفراغ والفقاعات التي ترسم ما مرت به حتى هذه اللحظة.

يترك الطفل يد أبيه ويجري إلى الداخل فيجد ورقة يفتحها (تذكر دائمًا أنني أحبك) ينظر إلى أبيه الذي انطلق باحثًا عنها، عن تلك التي لاحظ وجودها حين قررت الرحيل!

ذات ليلة

حتى أصبحت في حيرة من أمرى هل كنت أفضل سعادته، وتلك النظرة التى لم أرها سوى اليوم.. حتى وإن لم تكن موجهة لي؟ لكنها كانت ممتعة.. ممتع أن تنظر إلى وجه من تحب وتجده غارقًا في الحب.

كنت أحن لذلك اليوم لا أعلم لِم. هل لإحساسى بالذنب؟ أم لأرى تلك النظرة التى حرمته منها دون إدراك؟ ليتني كنت أعلم ذلك من قبل كنت فعلت المستحيل من أجل الاحتفاظ بهذه النظرة، بهذا الشغف الذي لم أره أبدًا، لذلك حاولت أن أتذكر ما حدث في هذا اليوم ربما أصل إلى شيء يجعلني أرى هذه النظرة من جديد..

كان هذا اليوم هو يوم زفاف ابنة خالتي، وعلى غير العادة وجدت زوجي مرحبًا بالمجيء معي دون بذل مجهود مني لذلك! بل يريد أن يذهب الآن. ارتدى ملابسه وطلب مني ذلك أيضًا، و حمل عني ابننا "عمر" مساعدةً منه لكي "ألبس براحتي" كما قال. كنت من قبل أتوسل إليه لكي يأخذ مني

الولد ولو لثوانٍ ولكنه كان دائم الرفض.. اليوم هو الذي يطلب أن يحمله عني، ولكي أجهز لحضور زفاف أحد أقاربي! لقد جن زوجي بالتأكيد.

دخلت غرفتي وأنا مندهشة وما زلت أنظر إليه لأتأكد أنه "حسن". كان يشغل بالي أكثر من الأشياء التي كانت تشغل بالي دائمًا في هذه اللحظات، فلا أعلم ماذا سأرتدي، أخذت أول شيء وقعت عليه يدي وقمت بارتدائه..

عندما استفقت من شرودي وجدت نفسي أمام المرآة و مساحيق التجميل تغطي وجهي وكأنني وضعت كل ما لدي، ضحكت ثم محوته، حتى انتهيت وخرجت لأرى مشهدًا آخر لم أره من قبل. "حسن " يحمل طفلنا ويهدهده حتى نام، عندما رآني أسرع إليّ، أعطاني الطفل وطلب مني النزول ولكنه لم ينتظرني خرج مسرعًا لكي يحضر السيارة لنذهب سريعًا، لم تكتمل فرحتي بالحب الأسري، خرجت وراءه وأنا ما زلت أجهل ما سبب رغبته في الذهاب بهذه السرعة!
وأنا ما زلت صامتة لم أجد من الكلمات ما يعبر عن حيرتي مما يحدث..
وفي السيارة وأنا أضع يدي على قلبي من السرعة الشديدة

غير المعتادة!

"بالراحة يا حسن هتموتنا!"

"متخافيش مش هتموتي"..

هكذا كان رده بمنتهى الهدوء أو ربما البرود، لم يكلف نفسه حتى عناء النظر إليّ وهو يتحدث..

نظرت إليه، ما سبب هذا التعجل؟ حتى إنه لم يتحدث معي منذ أن ركبنا السيارة، فهو محتضن المقود وكأنه شيء محبب لديه، لم يرفع عينيه عن الطريق إلا ربما ليرى الساعة، فكلما تحرك العقرب زادت سرعته، حتى تخيلت أننا أصبحنا محلقين ولكن ليس من السعادة بل من القيادة!

بمجرد أن لمح النادي أوقف السيارة وهو لا يدري كيف أوقفها ولا أين! خرج وتركنا، لم يلتفت! مندهشة أراقب ما يحدث، لكننى وجدت أنه لا فائدة من الاندهاش، فخرجت أنا أيضًا من السيارة وأنا ممسكة بابني الذي لم يتجاوز التسعة أشهر.. عندما دخلت وعيناي تبحثان عنه في كل مكان، لأجده واقفًا أمامي يتلفت كمن يبحث عن شخص ما، تخيلت أنه يبحث عنا، اندفعت نحوه وأنا أريد أن أفرغ كل الغضب الذي بداخلي..

-إنت إزاي تسيبني في العربية وكمان تدخل لوحدك؟ إيه قلة الذوق دي!

هذا ما كنت سأقوله، وبدت ملامحي مستعدة قبل لساني للتفوه بهذه الكلمات، لكي تُخرج غضبًا كامنًا كالبركان يريد أن ينفجر.

ولكني وعلى غير العادة تريثت، فأنا في فرح لا بد أن أبدو مبتسمة وسعيدة فأنا أقف بجوار زوجي، حتى وإن كنت لا أطيقه، فلا بد أن أظهر بجانبه وأنا في منتهى السعادة والابتسامة من (الودن للودن)، فمن حولي العيون متربصة حتى وإن لم أرها فأنا أشعر بها، أشعر بأنفاسهم المتلهفة لهذه اللحظة، ولكني لن أعطيهم هذه الفرصة، لن أدعهم يشمتون في، فحاولت بمنتهى التصنع أن أتحدث معه وأنا مبتسمة:

-إيه يا سونه واقف لوحدك ليه؟

نظر إلى ابتسامتي المفتعلة مثل كلماتي ولم ينطق بكلمة، وظل يبحث من جديد في وجوه الحاضرين ومن يدخلون ويخرجون، فأمسكت بيده..

-يلا نقعد.. إيه رأيك نقعد مع ماما ولا لوحدينا؟

-لوحدينا.

جلسنا على أقرب منضدة وهو ما زال صامتًا مستمرًا فقط في البحث بعينيه، أعطيته الطفل وتركت حقيبتي وذهبت لأسلم على أقاربي، تركته هائمًا مع نظراته التي لا أعرف ما سببها..

وبينما كنت أتحدث مع أقاربي أخذت أراقبه بين الحين والآخر، تلك النظرة المتلهفة لرؤية شيء ما.. لم ألحظ هذه النظرة قبل ذلك. أعتقد بأنه لم ينظرها من قبل. لم يكن بهذا التحفز يومًا.. ما السبب؟!

هل هذا هو الشاب الخجول الذي أحببته وأصبحت أحفظ ملامحه عن ظهر قلب؟ أعرفه أكثر مما أعرف نفسي.

لحظة.. يبدو أن السبب على وشك الظهور. لقد ثبت وجه زوجي وجمدت نظراته في اتجاه ما، وكأنما وجد ضالته.. توقف هو وبدأت أنا في البحث عن سبب جمود النظرة في هذا الاتجاه!!، وبعد أن تفحصت كل الاتجاهات وجدته ينظر باتجاه العروس.. هل من الممكن أن يكون هدفه العروس؟ حاولت أن أدقق النظر ثانيةً، فوجدت أختها "إنجي" تقف بجانبها.. فتاه تكبرني بخمسة أعوام فهي في مثل عمر

"حسن".. فتاة عادية، ولكنها أصبحت معيدة في كلية الآداب في قسم التاريخ كما تمنت.. كان هذا حلمها، أعتقد أنها لم تحلم يومًا مثل البنات بفارس الأحلام، رغم أنها كانت جميلة ولا تزال، أعرف أنه صعب على المرأة أن تعترف بجمال امرأة أخرى، ولكنها كانت جميلة حقًا، جميلة وواثقة من نفسها، ولكن ما علاقة كل هذا بزوجي؟ هل هو ينظر إليها فعلاً، أم أن الأمر التبس علي؟ استوقفتني نظراته ثانيةً فتحولت من الجمود إلى الهيام.

رأيت عينيه تلمعان.. نعم أرى لمعتهما رغم بُعدي عنه.. كانتا تشعان، شعرت أنهما تتسعان وكأنهما تريدان أن تبتلعا من تراه، يريد أن يشبع قدر الإمكان مما يراه.. هل هناك شيء ما بين زوجي و"إنجي"؟

اقتربت منه وأخذت الطفل الذي أعطاني إياه، وتركني وذهب في اتجاه نظراته طالبًا المزيد.. حاولت مجتهدة أن أمسك أعصابي وأن أتابع ما يحدث من بعيد.. فأنا دوري إلى الآن هو "كومبارس صامت " لا يعلم ما يدور حوله، فقط يتابع ما يدور، ولكن من بيدهم الأمر هم أبطال القصة وبالطبع هما الآن " حسن وإنجي" (تقريبًا الجزء التاني بعد ما حسن

"نفض" لنعيمة و"أنتم" مع إنجي)..
-وأثناء اندماجي في متابعة فيلم "حسن وإنجي" وجدت "إنجي" تشير إليّ من بعيد لأنضم إليهما. ابتسمت ابتسامة بلهاء؛ محاولة تقمص دور الزوجة الساذجة التي لا تبالي، ربما تكون هذه ليست سذاجة، قد تكون منتهى الحكمة..
-إزيك يا إنجي عاملة إيه؟
-الله يسلمك يا حبيبتي، بقى كده جوزك اللي يجي يسلم عليه وانتِ واقفة بعيد؟
-ما أصل حسن طول عمره صاحب واجب وعشري وكمان ما حبتش اضايقكوا.

- تضايقي مين "لا حظت وجود الطفل على يدي" ياختي إيه العسل ده!
-ده عمر ابننا عقبالك كده لما نفرح بيكى "وأشرت إلى حسن للتأكيد على أننا متزوجان ويربطنا ابن وهذا أمر يصعب هدمه بمجرد نظرات هائمة".
--قريب قوى أنا خلاص اتخطبت استتني أعرفك عليه هو هنا.

جاءت الصاعقة.. بهتت ملامح "حسن"، انطفأت شعلة الحماس بداخله فانطفأ معها النور الذي كان يضيء عينيه.

-أهو يا ستي "مصطفى" خطيبي وزميلي في الجامعة، ودي "هالة" بنت عمي.

لم أنظر إلى خطيبها بقدر ما نظرت إلى زوجي الذي نكس رأسه بمجرد سماع الكلمة. لم يرفعه إلا ليرى هذا الشخص الذي أفسد عليه هيام نظراته.. ولكن "إنجي" لم تبالي بـ"حسن" فكان اهتمامها لهذا الرجل الجديد.. النظرة التي كان ينتظرها "حسن" نظرتها لهذا الرجل، سمعت صوتًا، كانت "إنجي" تنبهني إلى خطيبها ويده التي بدا أنها ممدودة منذ فترة..

-آه أنا آسفة أهلاً بحضرتك وألف مبروك. ألف مبروك يا "إنجي".. تبادلنا القبلات وانصرف كل منا إلى سبيله.

تبدل حال زوجي.. لقد كان مشعًا منتشيًا، وفجأه فقد كل شيء.. لا أعلم متى بدأ هذا ولكنه انتهى أمامي، ولا أعلم إذا كنت سعيدة بهذه النهاية أم لا.. هل ما كان يربطه بـ"إنجي" حبًا أم وهمًا من جانبه..فكرت كثيرًا ولم أصل إلى شيء، ولم أسأله بالطبع..لا أريد أن أعلم شيئًا.. يكفيني أنه معي الآن..

محاولاً أن يرضيني، ولكن كل ما أعلمه هو أنني أريد أن أرى هذه النظرة حتى لو لم ينظرها إليّ.. عدنا إلى البيت وعاد كل شيء إلى سابق عهده.. وظللت أترقب هذه النظرة التي أحن إليها دومًا.. عسى أن ينظرها إليّ يومًا ما.

الرقص على الحافة

تنظر إليها مرتعبة، تحاول أن تثنيها عن السير على سور الشرفة، لا تأبه لرعبها وتستمر في السير مغمضة العين، منتشية بحركاتها الراقصة، لم يعكر صفو نشوتها سوى تلك الصرخات، تلتفت إليها في ضجر.

-ما بكِ يا ياسمين، ألا تملين من صراخك هذا؟

-مخطئة أنا لأنني أخاف عليكِ!

-من ماذا؟!.. لا شيء مخيف، نحن المخيفون حبيبتي.

-سما.. أنتِ تعلمين أن هذه الكلمات تجعلني أخشاكِ.

-لا تبالي، هيا ندخل.

في غرفتهما سرير ذو طابقين، تعتلي سما السرير العلوي وتقبع ياسمين في الأسفل..

-ألا تخشين ما تفعلينه يا سما؟

-أنا لا أخشى سوى أشياء تافهة لا يخشاها الآخرون.

-أحيانًا أسمعك وأنا أفكر هل هذه سما التي لم تتجاوز العشرين بعد!

-لا تفكري كثيرًا يا ياسمين , تصبحين على خير.

فتاة صغيرة تقف أمام سرير في مشفى بجوارها امرأة تحتضنها، بينما هي لا تفارق نظراتها المرأة النائمة على السرير، لا يعلمون متى تفيق سوى من الصرخات وحركات التشنج التي تفعلها.. يأتون على صوت تلك الصرخات، يحملونها كمن يحمل ثورًا هائجًا ويحاول أن يحجم ثورته.

أربعة رجال لم يستطيعوا أن يسكنوا ثورتها، وضعوها على السرير ذي العجلات ثم أسرعوا. الجميع اختفى آخر الردهة، ثم ظهروا من جديد، المرأة نائمة والدموع تسيل على وجنتيها في صمت مميت، أخذت المرأة الأخرى الطفلة من يدها، ثم ربتت على كتف المرأة النائمة وودعتها بنظرة حزينة، وودعتها الطفلة بدموع ونظرة متسائلة!

في المنزل الجميع يتحدث، ياسمين وأمها وأبوها.. سما تنظر إلى الشرفة، إلى سورها بالتحديد، ثم تنظر إلى صورة معلقة

على الحائط تجمع المرأة التي رأتها في المشفى والمرأة التي تجلس بجوارها الآن..

في منتصف شهر يناير كما اليوم، ذكرى ميلادها.. جاء أحدهم من الخارج ثم احتضنها بقوة وأخبرها أنها أصبحت بلا أم، وستسكن معهم وتصبح فردًا في عائلة جديدة.. هذ الرجل هو من يجلس بجوارها الآن.. تلك كانت هدية يوم مولدها... أصبحت تبغضه كما تبغض تلك العائلة... لمَ يجردنا القدر مما نمتلك بعدما اعتدناه! لمَ لا يمنعنا منه من البداية؟

مؤكد أن ذلك أيسر وأقل ألمًا.. (لا يهم) قالتها لنفسها وهي تنظر للشرفة من جديد.

رداء وردي قصير يتطاير كما يتطاير شعرها الأسود، ضحكات هيسترية تصاحبها حركات راقصة تشبه حركات الرقص المعاصر التي يطلقونها على كل الحركات المتمردة التي تعبر عن ذواتنا بطريقة مجردة. قدماها الحافيتان ثابتتان رغم أن أطرافهما بالكاد تلامس السور.. تيأس ياسمين من الصراخ المستجدي الذي يبوء بالفشل في كل مرة فتأتي بأمها وأبيها..

-لا تفعلي هذا. إنه يوم ميلادك.

تضحك سما بطريقة هيستيرية أكثر عند سماعها هذه الكلمة.

-ربما نفدت هدايا يوم مولدي. أريد أن أهدي نفسي شيئًا فريدًا.

-لكن هذا خطر. قد تفلت قدمك.

-أنت شخص ساذج، لست وحدك، جميعكم، هل تظنون أن أحدًا يموت صدفةً هكذا، لمجرد انزلاق قدمه من فوق سور عالٍ! تبًا لخيالاتكم. لا يوجد شخص يموت وهو لم يرد ذلك. نموت عندما يتخلى عنا الآخرون، وبعضنا يموت حين يتخلى عن ذاته أو تتخلى هي عنه، الموت قرار.

تتوقف عن الحركات الرقصة

-دائمًا نقرأ أو نشاهد تلك اللقطة. أحدهم ألقى بنفسه، تُرى بماذا شعر؟ هل كان الأمر بطيئًا كتلك اللقطة (slow motion) كما يسمونها في السينما، وظل يتذكر كل ما مر بحياته، ماذا سيحدث إذا تذكر شيئًا جيدًا؟ هل بإمكانه عمل (stop) ثم يعيد اللقطة من جديد ويتراجع عن رأيه؟ الأفضل

أن تكون لقطة سريعة، يقفز ثم نجده غارقًا في دمائه على الأرض لكنه مبتسم لأنه لم يجد فرصة للندم..

-كفى يا سما.. لقد أعطيتِ الماضي أكثر من حقه.. لا بد أن تعيشي من أجل..

تقاطعها وهي ما زالت تعطيهم ظهرها.

-من أجل ماذا؟ أنا أحيا الماضي وليس لي سواه..

-اتركوها هذه تصرفات..

-مريضة.. أنا كذلك بالفعل.. مثل أمي.

-المرء يكون ما يريده.. وأنتِ لستِ مريضة.

تمسك ياسمين بيدها فتنزلها من فوق السور، يدلف الأب والأم إلى الداخل بينما تنظر ياسمين إلى سما..

-أريد أن أشاركِكِ الرقص يا سما.. ألا تشتاقين إلى أيام كنا نتشارك فيها كل شيء؟

-أنتِ تخافين كثيرًا لكنني سأحملك.

تقفان سويًا.. تتردد ياسمين وترتجف في أول الأمر ثم ترقصان سويًا.. كشريكين اختبرا الكثير من اللحظات

الراقصة، تنتهي ياسمين من رقصتها فتجد نفسها وحيدة على السور، تندهش ثم تبكي ثم تضحك في هيستريا، تنزل عن السور وتستمر في الرقص مبتسمة ودامعة، تنظر إلى سما وهي تحلق راقصة في الفراغ، تبدو أكثر سعادة الآن!

تقف أمام الصورة تجدها صورة لها وهي تتوسط والدها ووالدتها، تتذكر الصورة السابقة والمرأة المريضة.. تجلس على الكرسي ناظرةً إلى الصورة وإلى الغرفة التي يخرج منها.. المرأة المريضة، الوالد، الوالدة، سما!

تعتلي السور فيبدو بعد ذلك حبل رفيع في الأعلى، تتراقص فوقه وحوله كأنها ساحرة تملك من الحيل الكثير لتروض الحبل هكذا.

على لافتة المسرح كُتب.. الرقص على حافة العقل أو الجنون!

الحب ينبت الورود أحيانًا

تجلس على حافة السرير تنظر عبر الشرفة إلى شعاع النور الذي يداعب ملامحها المبتسمة، فتاة في منتصف العشرينيات وجهها يعطي انطباعًا بأنها تجاوزت الأربعين، وجهها بريء لكنه شاحب، تغطي رأسها بوشاح أسود، ترتدي جلبابًا أسود به بعض الكرات البيضاء المتناثرة، تدخل عليها الحجرة امرأة أربعينية، الابتسامة تنير وجهها وهي تسرع تجاهها.

-لقد أتى يا ورد.. حُلم حياتكِ أتى.

-حلم حياتي. وهل يجوز لي تحقيقه الآن يا نرجس؟!

-انسي ما مضى.. لديكِ فرصة للحياة لا تضيعيها.

-سأحاول يا نرجس.. ما أنفك أحاول.. أتمنى أن أجدها.

-هيا لتريه ويراكِ.. ابتهجي من أجل تلك اللحظات التي انتظرتِه فيها.

-منذ الطفولة.

تنظر عبر الشرفة لتتذكر ما تم قبل تلك اللحظة بعامين، تسير ويدها تحتضن يده، عيناهما تشعان سعادةً وأملاً، حتى جاءت له فرصة السفر، أخبرها: عامان على الأكثر سيكون معها ولها، هل كانت تعلم أن في عامين سوف يحدث كل ذلك؟ ربما هذان العامان كانا أكثر أيام عمرها حاجةً إليه، فتاة جميلة ذات شعر بني طويل، جسد نضر، تذكر كيف كانت حين ترتدي ذلك الفستان الأسود القصير الذي يحبه. لكن الآن لم يعد كل هذا موجودًا، فهي حطام امرأة، لا يستحق هذا، نعم سوف أخبره بالحقيقة، أخبره أن ما مر قد مر، وهو آخر ما نملكه.

مرة أخرى على حافة السرير تداعب الضوء بيدها وهو يجلس إلى جوارها..

-أما زلت مُصرًا على أن نعقد قراننا اليوم؟

-هل غيرتِ رأيكِ يا ورد؟ هل نسيتِ تلك الشرفة؟

-لم أنسَ شيئًا.. على العكس لم أذكر غير ما كان بيننا. نظراتك. تلك الجوابات.

تشير إلى الكثير من الأوراق التي تغطي السرير.

-لقد كنا كلاسيكيين جدًا.. جميعهم يسخرون منا.. ونحن نقول: مَن أخبركم أننا وقصة حبنا من عصركم هذا.

-إذًا لمَ هذا السؤال يا ورد؟

-أخشى أن أفقد حبك، أو يتحول إلى شيء آخر.

-أقسم لكِ بورد.. لن يحدث ذلك.

-لذا يجب أن تعرف أمرًا ما، بعدها لك الحق في قرارك.. لن ألومك.

ينحسر الوشاح عن رأسها فتبدو شبه صلعاء، ثم تنزع الملابس عن صدرها وهي مغمضة العين، فتبدو على وجهه ابتسامة، يقترب ويلفها بالوشاح، يقبل رأسها ثم تهبط شفاهه إلى ألمها ليمنحه بعضًا من الحب والأمل في هيئة قبلة.

-هل هذا أمر هام يعطل عقد قران اثنين تحابا عمرهما كله؟ هيا استعدي يا ورد.

يتركها وتجلس هي من جديد يختلج في صدرها مزيج من البهجة والخوف..

لم تفكر يومًا بأنها سوف تحيا أيامًا سعيدة كتلك الأيام، صحتها أيضًا تحسنت، يبدو أن الحب علاج لم يكتشفه الأطباء، شعرها أصبح له وجود من جديد، لم تخجل من جسدها، فهي بين ذراع حبيبها كاملة الأنوثة لا ينقصها شيء..

في صباح يوم خرجت من الحمام ترتدي "بُرنس"، وقفت أمام المرآة تصفف شعرها فرحة به كمن تختبر إحساس الأنوثة لأول مرة، تخلت عن ردائها وظلت تنظر إلى جسدها عاريًا، وجدت في المرآة مكان نهديها وردتين حمراوين، لم تصدق ما رأت، أخذت تتحسسهما في سعادة، ثم فتحت النافذة ليداعب ضوء الشمس ضيفًا جديدًا استقبله جسد صديقته، لتعلم الشمس أن الحب ينبت الورود أحيانًا!

هناك حيث البشر!

قارب في منتصف النهر يتوسطه شاب في أوائل العشرينيات، تمر بين الحين والآخر بجواره قوارب أخرى، ينسى كل شيء وهو يتابع حركات تلك القوارب، خاصةً تلك المزينة بالأضواء الملونة، وهذا الصوت الذي يصدر منها، بعض الأغنيات مع شباب راقص، وكأنها جنة تسحره، نظر إلى السماء مبتسمًا فوجدها معتمة، لقد أخذته هذه البهجة من الصيد اليوم.

في صباح يوم آخر، ملامحه أكثر جدية، يريد أن يفعل شيئًا جديدًا غير مراقبة القوارب، رمى شباكه وظل يرمقها، يجدها امتلأت بالأسماك فيبتهج ثم يمتعض ويفرغها ثانيةً في البحر، يبتهج أكثر حين يراها فرحة عند عودتها للمياه، كأنه يراقب سر الحياة والموت.

ـهل أنت معتوه أم ماذا؟

جاءه الصوت من شاب يقف على حافة قارب مجاور له.

ـأراك تصطاد الأسماك ثم تطلقها.. أي مجنون يفعل ذلك!

-أنا.

-هذا ما كان ينقص البحر.. مجانين. أكاد أجزم أن حتى المجنون لا يفعل ذلك!

يرمي شباكه ويرمقها هو الآخر لكن الأسماك لا تقربها، تبدو الأسماك كلها وكأنها اتجهت إلى شباك الشاب الآخر، عرفت سر اللعبة، هناك الأمان، وهنا حيث اللا عودة.

نظر الشاب إلى الآخر بامتعاض.

-أعطني القارب أو الشباك..

-لك البحر بأكمله.

-ومالي بالبحر وما أريده منه يذهب إليك.

-ربما لأنني لا أريده!

-لا تبدو كصياد. كلامك غريب ونظراتك تلمع كمن يرى الحياة لأول مرة!

-لا تفكر كثيرًا، ترهقون أنفسكم بالتفكير، حاول الصيد في مكان آخر ربما تجد بغيتك.

يعطيه ظهره ويجدف بعيدًا عنه، يلاحظان اثنين على متن قارب، أحدهما يطعن الآخر في ظهره، يمتقع وجه الشاب الذي ترك الشبكة بأسماكها تختفي داخل المياه، بينما يلقي الآخر بنفسه في المياه محاولاً التقاطها، تأتي سمكة قرش من خلفه تكاد تلتهمه لكن يدًا تمسك به.

على متن قارب واحد سويًا يشاهدان الرجل الذي طعن صاحبه، يلقي به فتختفي جثته في المياه، ينظر حوله كمن لم يفعل شيئًا، ثم يجدف بقاربه مبتعدًا.

-أردت سرقة أسماكك وتنقذني!

-كيف لكم أن تفعلوا هذا... (مشيرًا إلى القارب المبتعد)

-هذا طبيعي.. سوف تعتاد الأمر.

-لا أريد اعتياد شيء، لك القارب والأسماك، سأجعلها تجيء لك على شرط ألا تقتل يومًا، وإن اضطررت لذلك لا تجعله من الخلف، يكفي أن تكون قاتلاً.

ينظر أمامه فيجده اختفى، يرمي شباكه فتمتلئ بالأسماك.

في قاع البحر سمكة زرقاء اللون تجلس وحيدة فتقترب منها أخرى.

-متى عدتِ؟

-أمس.

-استمتعتِ. أليس كذلك. هل رأيتِ الأضواء الملونة التي كنا نراها خلسةً حين نكون على السطح؟

-الأضواء مبهجة حين ننظر إليها في عالمنا.. في العالم الآخر لا شيء مبهج.

-العالم الآخر!

-نعم كل منا عالم أخر.. لكن ما اكتشفته أن أفضل ما حدث أننا خُلقنا في هذا العالم.

-لم يكن هذا رأيك من قبل!

-يبدو أننا لا بد أن ننتقل للناصية الأخرى حتى نتأكد أنها ليست جنة كما يُخيل لنا.

-هل تسابقينني..

-هيا. فالبحر لنا (ينظران للأعلى) ولهم أيضًا

تُراوده بقبلة

مستلقيًا على ظهره ينفث دخان سيجارته وهو ينظر إلى سقف الغرفة، يأتيه صوت من الخارج يتجاهله، يرى في سقف الغرفة فتاة ترتدي فستانًا قصيرًا تنظر يمناها ويسراها في قلق ثم تخطو راقصة، بدت له حينها وكأنها تنظر إليه وربما تمادى في خياله ورأى أنها تدعوه إلى الرقص، نهض بحركة راقصة وأخذ يرقص ويعلو بيديه حتى لامس يديها وأنزلها من سقف الغرفة لتكمل رقصتها معه، حتى كادت أصوات الموسيقى أن تتلاشى.. اقترب منها وكاد أن يقبلها، حتى أتاه الصوت مرة أخرى، لكنه هذه المرة يصاحبه طرق عنيف على الباب، ينهض مفزوعًا باتجاه الباب ويفتحه في غضب، فيجد أمامه رجلاً في منتصف عقده الخامس يرتدي جلبابًا، عيناه ضيقتان وفمه واسع لكنه الآن متسع جدًا فهو يلوك قضمة من ذلك (الساندوتش) القابض عليه في يديه، لا يهتم حتى بتلك الفتات التي تخرج من فمه حين يتحدث.

-ايه يا أستاذ محمد ده الساعة عشرة.

-طب وفيها ايه الدنيا طارت كنت استنى دقيقتين.

-يعني كانوا هيعملوا ايه الدقيقتين، يلا عشان تلحق تاخد دش واعدل الفصل العيال زمانها جاية.

-طب ياخويا ادخل.

يدخل الرجل، وهو يأخذ أشياءه ويخرج.

يقف معطيًا وجهه للسبورة، يكتب عليها بضع كلمات بالإنجليزية مرددًا إياها، ثم يطلب من التلاميذ ترديدها خلفه، ثم يُنهي الأمر طالبًا نقلها في كراساتهم، يجلس بعدها على الكرسي ناظرًا إليهم، أطفال لم يتعدوا العاشرة، منهم من يكتب، من يتحدث إلى زميله، من يعبث بالقلم فقط، يريد أن يوهم أستاذه أنه يكتب، لا يعلم أنه يفهم ما يفعلون بمجرد النظر، غير أن الأمر بالفعل لا يهمه، فهو سئم كل شيء، ينظر إلى سقف الغرفة ليجده فارغًا لا يوجد به أي شيء. تمتم ببعض الشتائم وبالطبع كلها كانت من نصيب ذلك الحارس الذي فرق بينه وبين شريكته في الحلم، يبتسم ساخرًا.

-تلاتين سنة يا محمد ومفيش جديد في حياتك غير أحلام. مفيش حتى بيت. بتستنى آخر الليل وتيجي زي الحرامي

تبات في المدرسة. بس خلاص هروح اشوف الشقة.. كل يوم تقول كده وتلف وف الآخر تلاقي القرشين اللي جمعتهم بالضالين مش جايبين حق شقة.

لكنه تذكر كلمات مرعي حين طمأنه بأن هناك شقة يستطيع الحصول عليها.

أمام منزل في حارة ضيقة، بيوت أغلب من يسكنها يجلسون في الشارع -خاصةً وأننا في أغسطس، الأولاد يلعبون، النساء يجلسن على المصاطب يثرثرن، الرجال يبدو أن جميعهم على ذلك المقهى الذي من حسن حظه -أو سوئه لا نعلم بعد- أنه تحت منزله. اتفقا مع صاحب المنزل وأخذ الشقة، لقد صدق عم مرعي.

في الليل لم يصدق نفسه وهو مستلقٍ على سرير لأول مرة منذ فترة، لا يريد أن يتذكر أين كانت آخر مرة وأين فتلك مرحلة يود أن ينساها، يمسك سيجارته ويشعلها، ربما تخيل أن دخان سجائره طقس لظهور تلك الفتاة من جديد، صدق تخمينه وأتت بنفس نظراتها الغامضة المبهرة، لمَ تأتيه دائمًا عبر سقف الغرفة؟

مغفل أنت كيف تسأل هذا السؤال.. إن لم تأتِ الملائكة من الأعلى فمن إذن.

ولكن، هل يجوز لنا تقبيل الملائكة؟! ذلك النوع من الأسئلة هو ما ينقصنا الآن!

كاد أن ينهي الأمر بقبلتها التي ينتظرها منذ آخر مرة، لا.. لن يتذكر قد يأتي على ذكر سيرته، لكنه بالفعل أتى، صوت هاتف مزعج مع صوت جرس الباب، وتساعدهما في الخلفية أصوات أخرى، وكأنهما بحاجة إلى المساعدة!

ظل مستلقيًا كما هو ناظرًا إلى سقف الغرفة الذي اختفت منه الفتاة، دائمًا تختفي حين تأتي الأصوات، هل سيظل تعس الحظ في الواقع والخيال أيضًا؟ من قبل تهجره حبيبته من أجل المال، والآن يهجره خياله من أجل.. لا. سيأتي لها في الليل، لا بد أن تنتظره، لا بد أن يحصل على تلك القبلة، أليس عبثًا أن يكون نصيبه في الحياة قبلة خيالية ولا يتمكن من الحصول عليها؟

لست تعسًا لهذه الدرجة، لنا موعد في المساء..

يعلو صوته وهو ينهض..(جاي يا عم مرعي)

قصاصات وخط وهمي

يد تتوقف عن كتابة شيء ما، ثم تفتح درج المكتب وتدس الورقة به، له مدة غير قليلة يفعل ذلك دون إدراك، مجرد اعتياد، لكن هناك شيئًا أجبره أن يمعن النظر بداخل الدرج، وجد بعض القصاصات الورقية فقط..

-كيف حدث هذا؟ وما تركته من قبل... أين ذهب، كيف تحول لقصاصات؟!

قام عن كرسيه وجال ببصره في أرجاء الحجرة التي نادرًا ما يفارقها، بل إنه نادرًا ما يفارق هذا الكرسي والقلم والأوراق، حجرة صغيرة بها غير المكتب سرير كبير رسم على نصف ملاءته خطًا، في النصف الآخر بعض الصور، نظر إليها، يبدو أن هذا منعه من الاستلقاء، أمسك كتابًا من هؤلاء الذين ملأوا كل مكان في الحجرة، جلس على طرف السرير.

-بمَ شعر أول من أمسك بالقلم ليكتب عن شيء ما؟ أي شيء سيكتبه بطبيعة الحال سيكون جديدًا.

-من هو البائس؟ الذي يبدأ من الصفر أم ذاك الذي انتهت أعداده ولا بد أن يخلق أعدادًا جديدة، أو يبدع في ترتيب الأعداد فهذا ما يملكه؟ محظوظ من بدأ من الصفر، جاءته الحروف شبقة وما عليه سوى الاستجابة لها ثم يشكلان ثنائيًا يتلاشى في سطور مبدعه، ربما لأنه مبدع لكن أيضًا لأنها بكر..

-هل ابتليت بهذا الزمان، حيث كل الكتب قالت كل شيء، الحروف أصبحت عجوزًا مجرد قبلة ترهقها، الحياة أصبحت عاهرة ملها الجميع.

يرمي السيجارة التي كادت تلسعه ثم يدهسها بقدمه العارية، يتلذذ بتلك اللسعة التي تعمدها.

-لن أكتب عن النهاية، كل من كتبوا امتصوا كل الأفكار الخاصة بالحياة والموت.

يقهقه ثم ينزل على الأرض فاردًا ساقيه بين الكتب والأوراق وأعقاب السجائر..

-فقط تركوا لنا ما بينهما نهذى فيه.. ما بين الحياة والموت.

ينظر إلى المكتب الذي اندفع إلى درجه ليفتحه من جديد..

-قصاصات... ما بين الحياة والموت مجرد قصاصات في درج مغلق، والحياة والموت يملآن كل هذه الكتب!

- لقد تعبت اليوم من هذه الترهات، سأخلد إلى النوم، فهناك عالم آخر ينسينا هذا كله في دنيا الحلم.

يتمدد على جانبه محاولاً ألا يتخطى الخط، ناظرًا إلى الصور ومتحدثًا إليها.

-ماذا لو لم تكن هناك بدايات أو نهايات؟ بماذا كنا سنشعر وعما كنا سنكتب؟

...............لا شيء يجيب

-لا تذهبوا بعقولكم بعيدًا. لست مجنونًا، لكنني أفكر حقًا، ماذا لو كان الأمر دائريًا؟

-أن نكتب عن أشياء لا تنتهي!

لم يبالِ بأن صوتًا ما أجابه، يمد يده المرتعشة وكأنه يتخطى سلكًا شائكًا تمت كهربته وليس خطًا وهميًا، يلامس الصورة.

-أتدركين، حين يكون الأمر دائريًا، ما كنتِ مجرد صورة الآن، سوف نذهب لنعود، الدائرة لا تنتهي وكذلك كل شيء.

ينظر إلى صورة أخرى.

-أنتِ من سيفهمني جيدًا، لو كان الأمر دائريًا ما كنا نصفين الآن، كنت سأغضب منك حتى أنتهي من جديد أحبك، لن نكون وحيدين وتعساء لو كان الأمر دائريًا.

يطوي ساقيه ويحتضن نفسه كمن يحمي نفسه من عدو يحاول قتله.

-أنتم لم تروا ما رأيته وأراه كل يوم، لا تدركون لمَ أكتب كل الأشياء ناقصة، دون نهايات.. أخشى الكمال، حين يكتمل كل شيء لا بد أن ينتهي، وتلك الكلمات هي ما بقيت لي، كيف تنتهي مني أو أنتهي منها، أعلم أنكم ستقولون: ولكنك تكتب غيرها، هناك أيام لا أستطيع أن أكتب حرفًا فتؤنس وحدتي تلك الشخصيات المعيبة والأشياء التي تريد نهايتها.

نهض مفزوعًا يبكي ويضحك كمجنون..

-النهايات... ما بين البدايات والنهايات مئات البدايات والنهايات الأخرى، ها أنا ذا أمسك عن شخوص أخرى نهايتهم، يخيل لهم أنني أعذبهم، لا يعلمون أنني أعطيهم الخلود، أن يحلقوا في سماء أبدية..

يأتيه الصوت مرة أخرى..

-دائرية!

يرتاب ويتلفت حوله، يبتسم.. هناك شيء آخر غير الحلم والنهايات المبتورة يؤنس وحدته..

-نعم دائرية. ولكن.. أتجوز الدائرية في كل شيء؟

-كل شيء.. هذا يتوقف عليك.

يجلس في منتصف الغرفة محدقًا في السرير.

-هذا ما يفعلونه بك.. يقيدونك ثم يقولون أنت حر!

-سوف أحرر تلك القصاصات.. لا بد لها من نهايات، لا أحتمل أن اكون هكذا، أن أحمل ألم الكون منذ بدء الخليقة وأنا لا أقدر على تخطي هذا الخط الوهمي..

يفتح الدرج فيجد القصاصات اختفت.. والمكتب مليء بالأوراق البيضاء..

ينظر إلى كل شيء بتمعن خاصةً مع اختفاء الكتب والصور وحتى الخط الوهمي على السرير..

-هل هذه هي البداية... أم الدائرية!

السير فوق الكلمات

أربع أقدام تسير متجاورة اثنتان بشريتان والأخريان لحيوان.. تسير الأقدام الأربع بخطى متقاربة، يتقدم الحيوان فتظهر أقدامه الأربع، بينما الأقدام البشرية ما زالت تخطو خطى روتينية وئيدة، تقدم أحيانًا وتدبر أخرى، رأس الكلب يلامس الأرض حين يرى عظمة تآكل أغلبها لكنه لم يمانع أن يحصل على ما تبقى منها، هذا ما يرضى به الكلب على أية حال، يسقط منديل على الرصيف، الكلب فوق الرصيف تقل خطوته حتى تخور قواه فيستلقي على الرصيف.. وقفت قدما الرجل أمام موضع الكلب بضع ثوان ثم وكأنها انتبهت لشيء ما فأسرعت خطاها حتى اختفت.

رأس به بعض المشيب، وجه مكفهر مبتل بعرق يجعلك تفكر هل هو متعرق أم اغتسل؟! لهذا لا يكف عن استخدام المناديل الورقية، عينان زائغتان خلف النظارة الطبية، ذقن نبت فيها أيضًا بعض الشعيرات البيضاء، اعتاد رأسه التجول بين البنايات، حين يلتفت إلى اليمين سوف يجد تلك العمارة التي يمتلئ فناؤها بالسيارات، فيتعجب كيف لمكان واحد أن يمتلك كل هذا وهو قد تجاوز الخمسين ولم يستطع الحصول

على السيارة التي حلم بها، رأسه يعانده فقد انتهى دور هذا، أتى دور السيدة الجميلة التي ينتشي لعطرها كل يوم، لم يفكر يومًا أن ينظر إلى وجهها فقط اعتاد رائحتها..

يسمع رنين هاتف فيتحسس جيوبه حتى يخرجه، ينظر إلى شاشته ليجد اسمًا لشخص ما، تمتعض ملامحه ثم يغلق الهاتف دون رد ويعيده إلى جيبه مرة أخرى..

ماذا سيحدث إن لم أذهب إلى العمل اليوم، أن أختار يومًا في تلك الحياة كما أريد؟

لأول مرة يخالف جسده الخطوات التي اعتدها، عاد أدراجه إلى الرصيف بجوار الكلب المستلقي، جلس بجانبه.

-هل خالفت روتينك يومًا؟ (يضحك ساخرًا) ألديكم روتين أيضًا؟. أظن ذلك.. الروتين ناموس الكون.

-خمسة أعوام وأنا أشاركك السير على هذا الرصيف، لم تتغير عاداتنا، ألم ترغب يومًا في التغيير؟

أن تكون بشريًا يائسًا لا يجد من يحادثه فيلجأ إلى كلب!

-كيف تنام كذلك على قارعة الطريق دون خوف، دون استياء من ذلك الضجيج، وأنا أنام وسط سكون تام، ويزعجني دائمًا ضجيج روحي.. لمَ لا يوجد كاتم صوت لضجيج الروح؟

يغفو للحظات بجوار الكلب ثم يستيقظ ليجد الكلب متبولاً إلى جواره، وهناك أيضًا بضعة نقود معدنية وورقة منتفخة ومطوية لا بد وأنها تحوي شيئًا ما، أمسك بتلك الورقة وأخذ النقود المعدنية وهو ينظر حوله مبتسمًا ثم يشمئز حين يلحظ بول الكلب من جديد، فيبتعد عنه بقليل ثم يخرج منديله ليمسح يده ووجهه، وبعدها فتح الورقة ليجد رغيف عيش ممتلئًا بالأرز واللحم، نظر إلى السماء باسمًا، ثم قضم أول قضمة من الرغيف، وبعد أن وصل إلى منتصفه أعاده إلى الورقة ثم طواها ووضعها إلى جواره، نهض وأخذ ينفض التراب عن ملابسه ثم نظر إلى قدمه العارية، التفت حوله فلم يجد الحذاء.

-هذا هو الأمر إذًا لقمة عيش مقابل حذاء... لا شيء مجاني على هذه الأرض!

تسكع حافي القدمين لتصبح حريته واقعًا ملموسًا ولو بأقدامه! لمح صديقه الكلب من بعيد يسير بجوار كلب آخر، لا. إنه ينظر إليه بطريقة مختلفة، يبدو أنها أنثى، اقترب حتى لامسها تتمنع وتبتعد لكنها تستسلم في النهاية..

-كلهن سواء يا صديقي.

يضحك ويسير بلا هدف.. قد يكون هدفه هو أن يفعل ما لم يفعله يومًا، ظل يفكر فيما رآه من الكلب وزوجته، لا يعلم إذا ما كانت زوجته أم زوجة آخر وتحبه هو، أم أنها ليست ملكًا لأحد، هل يفكرون مثلنا؟ يشعرون مثلنا بتلك الأشياء التي تنغص علينا حياتنا!.

ظل شاردًا مع أفكاره حتى رأى شابين يعترضان طريق فتاة، لم تسعفه قدماه لإنقاذها بل فعل ذلك نباح صديقه الكلب، أخاف الشابين حتى وليا فرارًا، الفتاة تهرول بعيدًا، لا يعلم هل انتهت قصتها أم سيأتيها ما هو أسوأ..

جلسا على رصيف آخر، أعطى اللفافة للكلب وظل يرمق المارة، يتخيلهم آليين خالين من الحياة، ثم يلتفت للكلب من جديد.

-ألم تغير رأيك بعد؟ لا تريد أن تصبح بشريًا؟ تأتي للدنيا غير راغب وترحل عنها كذلك، تسير بك الأيام ولا تسير لك قط، تحلم بحب فتاة، ثم تفكر كيف تتخلص من حبها ذاك، تتمنى إنجاب أطفال، حتى يأتوا فتقول لنفسك هل الأمر كان يستحق أن تتمناه بالفعل؟ حتى تدور بك الأيام، ويصبح حلمك مرور اليوم ونهاية لائقة..

ينظر إلى جواره فيجد صديقه قد غط في النوم، وجهه راضٍ، ظنه مبتسمًا، وربما يكون بائسًا مثله لكنه لا يستطيع البوح..

-أتعلم يا صديقي أن الموت هو نهاية كل ذلك، لا بد أن ننهي هذ السخف المسمى بالحياة، أنت لست سعيدًا بحياتك مثلي أعلم ذلك، أنت فقط تخشى الوحدة هناك، لكني سأكون بصحبتك، لا أعلم إن كنا سنتحدث هكذا هناك، لكن حتمًا ليست هناك وحدة وعذابًا أكثر مما مررنا به..

ينظر إلى الكلب النائم والشارع الفارغ والسماء المظلمة، يشعر بأن كل شيء مل أفكاره وكلماته، جميع كلماته ترد إليه دون إجابة!

- أعلم أنني أثرثر كثيرًا.. زوجتي أخبرتني بذلك، حتى إنني أراه في ملامح أولادي حين أقترب منهم.. أسمعهم دون أن ينطقوا..

-ها هو الثرثار قد أتى، لكنني لست كذلك، أنا فقط أفكر كثيرًا، أمتلئ بالضجيج فأريد أن أقضي عليه بالثرثرة، لا يسعني سوى ذلك والانتظار القميء للحظة النهاية، رغم أن كل شيء فيّ انتهى، لكن لا بد أن أنتظر!

ينظر إليه فيجده ما زال نائمًا.

- نعم لن نستطيع سوى الانتظار فتلك الكلمة الأخرى التي تملك نفس الوزن ليست من حقنا.. حتى الحديث عنها.. (يتلفت حوله)

- حتى الحديث عنها أظن أنه أمر ليس صائبًا، ينظر إلى السماء وقد استلقى بجوار الكلب، لقد شارفت الشمس على الظهور، يومي قد انتهى هل نتحرر أم يعود كل منا إلى دائرته يا رفيق؟!

بعيدةٌ أنتِ

لم تستوقفه إشاراتها تلك التي يفعلها الجميع لإيقاف سيارة أجرة، بل نظراتها. شعر بشيء مختلف يجعله لا يستطيع فعل أي شيء سوى الوقوف، رغم أنه كان يود العودة إلى منزله، ليأخذ قسطًا من الراحة.

امرأة في منتصف الثلاثينيات، متوسطة الطول، جسدها يميل إلى النحافة، شعرها الذهبي قصير متطاير. بدأ ينسى إرهاقه بالفعلعندما اقتربت من باب السيارة وقامت بفتحه، هنا بدأ السحر، جلوسها بقربه أفقده الشعور بكل شيء سواها، تلك الكيمياء التي يتحدثون عنها طيلة الوقت يشعر بها الآن.. هل هذا الحب من أول نظرة؟!

لا يعلم ما لفت انتباهه إليها. رجل في أوائل الأربعينيات، وفي مهنته تلك، يبدو على مظهره أيضًا أنه ليس بالشخص الذي يُفتن بامرأة بهذه السرعة. نظراته العميقة، شعره المختلط أسوده بالكثير من أبيضه يوحي بأنه يرى عمره بشكل حقيقي. لقد رأى الكثيرات اللاتي يتمتعن بكل شيء، لم تثرن فيه أي شيء. فقط مجرد (زبون) تأتي محطته ويرحل.

يشتم عطرها فيشعر أنه فقد الوعي، وأنه في بلاد أخرى تشبه الجنة، عطر نقي، مثير، كيف لها أن تفتنه بهذه الطريقة؟ أتتعمد ذلك؟ هل هي من النساء اللاتي يستمتعن بنصب الفخاخ للرجال؟ على العكس؛ تجلس هادئة، ملابسها بسيطة لدرجة أدهشته، لم تنظر سوى إلى المارة والأبنية، لم تتعمد النظر أو التحدث إليه منذ أن ركبت السيارة. كلما حاول المقاومة تأتيه نسائمها فتطيح بأفكاره بعيدًا.

ينظر إليها خلسة بين الحين والآخر، تبدو رقيقة الملامح بعينيها الخضراوين، أنفها الطويل، وجهها البيضاوي، بشرتها الشفافة، نعم شفافة.. لم يرها بيضاء فحسب، تبدو يداها رقيقتين كيد طفلة لم تختبر الحياة بعد حين امتدت لترى الوقت من خلال ساعتها.

لا يعلم حقيقةً هل هو واعٍ بما يشعر أم ذلك مجرد حلم مما يسمونها بأحلام اليقظة! ولكنه كلما شعر بأنه يحلم أمسك بالمقود ليتأكد أنها حقيقة بلا شك. لا يدري كيف استطاع أن يكون في الجنة وعلى الأرض في آن واحد. كيف لعقله أن يشرد وأن يكون في منتهي الانتباه لملاحظة الطريق ومتابعتها. (جاءه صوتها).

-توقف هنا أريد النزول.

أتاه سحر آخر لم يستطع مقاومته، وجد نفسه مشدوهًا يتوقف، يأخذ أجرته دون أن يتحدث بكلمة. هنا رحلت دون أن يعرف عنها أي شيء، ربما ليتأكد من وجودها حقيقة! دائمًا ما يباغتنا الوقت.

تركته ولم تتركه تفاصيلها، كذكرى كل الأحلام الجميلة التي ترافقنا لبعض الوقت ظلت ترافقه. مرت فترة من الوقت وهو يبحث عنها في كل النساء اللاتي قابلهن، يبحث عن ذلك السحر الذي لم يشعر به سوى معها، رغم إنها لا تعلم عنه أي شيء ولا شعوره ذلك.

في يوم وهو في طريقه رأى صورتها على واجهة إحدى المسارح!

هل هي بالفعل؟ أم يُخيل له. أم أنه لم يرها وكل الأمر خيل له؟!

وقف مندهشًا غير مصدق للحظة، ثم اقترب من هذا الغلاف الذي يحمل صورتها.. إنها هي بالفعل. هل هي نجمة إذًا؟ هذا ما يفسر سحرها الذي شعر به، هذا ما يفسر عدم اهتمامها

بالنظر إليه، لحظات مرت وهو ينظر إلى صورتها حتى شعر بضجة من حوله،إنها هي.. اختلفت كثيرًا عن تلك التي رآها، من تقف أمامه الآن محاطة بالكثير من المعجبين، امرأة جميلة حقًا، لم يرَ فيها تلك البساطة الساحرة، لكنها ما زالت تملك تلك النظرة الحزينة الآسرة.

الكثيرون يقتربون منها طامعين في توقيع.. أقصى ما يتمنونه نظرة بابتسامة مصطنعة لكي ترضيهم، أما هو رآها كما هي.. هل يتقدم ليحصل على ذلك التوقيع أو تلك النظرة الباسمة؟!

حاول الإمساك بورقة وقلم من أحدهم، كتب شيئًا ثم أعطى الورقة لشخص ما ليعطيها إياها ثم وقف بعيدًا ينظر إليها، رآها تقوم بتوقيع تلك الأوراق، رأى نظرتها قد تغيرت فعلم أنها حصلت على ورقته، حينها أخذ سيارته وانطلق من جديد، يطاردها في خياله، فتلك التي في خياله لا يملكها أحد غيره.

أما هي أمسكت الورقة.

أنا من عشقك دون سبب، رأيت سحرك ولم أعلم سره، ظننتك شخصًا أيقنت الآن أنكِ لست هو، أنا المعجب الوحيد الذي لن ترينه وسط هالتك، سيظل يراقب تفاصيلك ليذوب فيها من بعيد.. بعيدةٌ أنتِ!

نسيت بعد تلك الكلمات من حولها.. ظلت تتلفت حولها لتجد نظرة تخبرها بشخص من كتب تلك الكلمات، لكنها شعرت أنه شخص تسببت في حيرته فأراد أن يجعلها تختبر شعوره.

حديث الصمت

بينما كنت أقف منتظرة شعرت ببعض الألم، بدأ توازني يختل فأجلستني إحداهن حتى يحين دوري. نظرت إلى ذلك الطابور الطويل الذي كنت أقف فيه، يكاد يكون نسائيًا لولا قلة من الرجال تقف بجانبهن فيما يسمى بطابور آخر.

وقفة النساء كانت عنصر جذب لي.. منهن من تحمل طفلاً لا يكف عن البكاء، مما يجعل من تقف أمامها تنظر إليه والى والدته بتأفف، وأخرى تهتم بمظهرها رغم مرضها.. من جمالها وطلتها تكاد تشك أنها ليست مريضة! ومن يعلو صوتها على امرأة تجاوزت دورها، وتلك التي تتحدث عن كافة تفاصيل حياتها لامرأة تراها لأول مرة.. أشعر بأنهن ينتظرن تلك اللحظات لكي يخرجن ما يشعرن به من غضب أو سعادة أو حديث يردن البوح به لغريب!

اتجه بصري إلى حجرة بجانبي.. الحجرة بها موظفان رجل وامرأة في منتصف عقدهما الثاني، كل منهما يجلس على مكتبه ويتبادل النظرات مع الآخر متناسيًا من يقف أمامه، وإذا اشتكى الأخير لا يجد سوى صوتًا عاليًا.

- لسه يا أستاذ هنحضر الدفاتر ونفطر ولا بلاش ناكل لقمة زى حضرتك!

يقوم الموظف بإخراج المريض، ويغلق الباب خلفه ليحضر الدفاتر ويفطر. و... يتحدث مع زميلته!

بدأت أشعر بالدوار. أنظر أمامي لا أرى سوى صورة مشوشة، أغلق عيني وأفتحها فتزداد الضبابية.. حتى تلاشت الصورة من أمامي وجدت المكان خاليًا تمامًا، المكان نفسه تبدل، أصبح أكثر قدمًا وكأنني في عصر آخر!

هذا الرواق الكبير. والكثير من الحجرات التي كانت من قبل حجرات كشف مليئة بالبشر تسمع من خلالها جميع الأصوات، الآن لا أسمع سوى السكون. هل غفوت وغادر الموجودون وتركوني وحدي في هذا المكان المخيف؟

رأيت طيف امرأة ترتدي ملابس غريبة، ملابس تشبه الأميرات، والمكان تحول إلى ما يشبه (القصر).. هل هو بالفعل كان (قصرًا)؟!

حاولت أن أكتشف هذا المكان.. رأيت حجرة بها طاولة كبيرة تصطف من حولها كراسٍ تتسع لعائلات بذويها، بجوارها

حجرة أخرى بها عدة أسرة، لم أرَ للحجرة حوائط من الستائر الفاخرة التي تغطي كل شبر فيها، عدت من جديد..
من هي تلك المرأة؟ وما حكايتها؟ وما الذي أتى بها هنا؟
وربما ما أتى بي أنا هنا؟!

اقتربت منها، وراقبت نظراتها، ودموعها، امرأة بيضاء ذات جسد ممشوق، عيناها العسليتان تلمعان مع الدموع، وأنفها الطويل به بعض الحمرة. في كبرياء أخذت منديلاً من حقيبتها ومسحت دموعها.. كنت أريد أن أقترب منها أربت على كتفها.. أن أفعل لها أي شيء، ولكنني جبنت..

التفتت ناحية الباب لكي ترحل، ولكنها نظرت مرة أخرى إلى الحجرة التي خرجت منها وهي تنتحب ثم خرجت...

أخذني الفضول إلى تلك الحجرة التي كانت تنظر إليها..
وجدت رجلاً طويلاً وسمينًا.. يشعرك بالرهبة خاصةً ما إذا كنت وحيدًا في هذا المكان، كان ينظر من النافذة، لا بد أنه ينظر إليها.

حجرة نوم كبيرة جدًا، بها سرير كبير فوقه تلك (الناموسية). أغطية من الحرير، يوجد بعض الكراسي من الطراز القديم المطعمة بالذهب، والبساط الفاخر، وبعض الصور، ولكن وسط كل هذا الثراء بدا الفقر في دموع المرأة التي رحلت، وفي وحدة ذلك الرجل الذي ترك النافذة في يأس وجلس على كرسيه الفاخر.. رغم غلظته كانت ملامحه حالمة في تلك اللحظة، حتى إنني لمحت دمعة مكابرة تأبى النزول.

شعرت باحتباس أنفاسي، انصرفت وأنا لا أعلم كيف أتخلص من هذا كله، وفي خارج القصر وسط المروج الخضراء، لا يفصل بينه وبين هذا المشهد الحزين سوى بضعة أمتار، شاب أسمر طويل ونحيل لا تعرف ماهية عينيه قط، تارة تتسع وهو ينظر إلى حبيبته، وتارة تضيق وكأنه يحتضنها بها، أما هي فتاة لا تتجاوز الثمانية عشرة، خمرية اللون عيناها بنيتان مسحوبتان، شفاهها وردية اللون مكتنزة، وجهها مستدير، اقترب الشاب متلفتًا ثم همَّ بتقبيلها، أشاهدهما و أصبحت أتلفت مثلهما، أريد أن أقلق بدلاً عنهما، أردت أن أغلق عيني على هذه السعادة، لا شيء يفسدها علي، وجدتني أقول لا أريد أن أفسد هذه ال..

صحوت على صوت من حولي وهم ينظرون إلي.. نظرات قلق وريبة،سمعت صوت إحداهن تقول...

-إيه يا حبيبتي خضتينا عليكِ عمالة تهلوسي ومش عارفين نفوقك..

ابتسمت وأنا أرى المكان من جديد، نفس الطابور،كأنه لم يتحرك،نفس الأشخاص بذات التصرفات.. ماذا حدث؟ هل فقدت وعيي؟ لا أعلم.

ولكن.. ما الذي أراد هذا المكان أن يخبرني به؟ ما الذي تحمله هذه الجدران،من حزن وشقاء، وتريد أن تشاركه مع أحدهم؟

قررت الانصراف، أشعر أنني شفيت،وربما حان دوري في طابور آخر غير هذا الطابور الساكن!

انصرفت وأنا أنظر إلى الحجرات، ورأيت حجرة النوم التي تحولت لمكتب الموظفين الذي رأيته من قبل!

فقد قدر للحجرة أن تشهد الحب الذي لم تره من قبل! وأنا أشاهد كل حجرة وأرى من بداخلها.. أبتسم وأفكر.. تُرى من

سكن هذه الحجرة من قبل؟ وما هي قصته؟! هل يحوي هذا المكان مزيدًا من الحزن والشقاء؟ أم ربما شهد لحظات سعادة وإن كانت قليلة! وأثناء مروري ومراقبة الحجرات.. اكتشفت أن كل حجرة لها طبيعة خاصة أبت أن تغيرها، ولكن تغيرت أشياء لا بد أن تتغير مع الزمن، لبت للمكان احتياجات وأخذت منه أخرى. شعرت كأنني كبرت أعوامًا.

في الخارج كانت هناك قصة أخرى؛ فقد تحولت المروج الخضراء إلى منازل كثيرة مختلفة متلاصقة، لا تفصلها سوى الحارات والأزقة، منازل متنوعة بتنوع شكلها وماهية قاطنيها. حاولت أن أستمع إلى قصصهم ولكنني فشلت..

أصبح المكان مخنوقًا لا يستطيع أن يحكي.. هل أصبح المكان أبكم. أم نحن من أصبنا بالصمم؟